



بجهود عبد الرحمن الباشا

في

تمكين اللغة العربية (*)

د. محمد حسن عبد المحسن - سورية

والتحديات التي تواجه اللغة العربية
خطرة وكبيرة، والمعاناة قديمة، فقد
بدأت المشكلة اللغوية العربية مع
الشعوبيين، واستطاعت بما تمتاز به
من خصائص وسمات أن تصمد في
وجههم.

وقال الأستاذ علي الطنطاوي في
مقالته (دفاع عن العربية) قبل نصف

ولا تقتصر أهمية اللغة على كونها
أداة تواصل وتخاطب، وإنما هي وسيلة
تفكير وإبداع، وآلية بقاء وخلود، وأداة
تقدم. ومما قاله د. عبد العزيز التويجري
الأمين العام للمنظمة الإسلامية للتربية
والعلوم والثقافة: (اللغة العربية قضية
أمن قومي، لأن حياة الأمم في لغتها
وقوتها وازدهارها).

إن أكثر ما يجمعنا هو
اللغة العربية، فهي كنزنا
الزخرفي قرون طويلة
مضت، وكثير من الشعوب
من غير العرب كانت
تتسابق لتعلمها، وكثير من
غير العرب خلصوها لإدراكها
منهم لعظمتها وكونها
قادرة على أن تحتضن
مختلف العلوم والآداب،
ومما يميزها من غيرها
من اللغات أنها: «ترقى
إلى سبعة عشر قرناً على
الأقل ولا توجد في العالم
لغة أخرى عريقة مثل
هذه اللغة... ولا أعرف لغة
بين اللغات الحية يتقيد
فيها مستعملوها بالصيغ
والدلالات وطرق التعبير
التي كانت مستعملة منذ
أثني عشر قرناً...

(*) من بحوث ندوة الدكتور عبد الرحمن الباشا في دار الثقافة بدمشق، وزارة الثقافة السورية (مختصر).

الأجنبية، أو بتسييرها وإصلاحها... إلى غير ذلك من الدعوات المشبوهة التي تنال من الثقافة العربية الإسلامية عموماً، وأنا أحذف واو العطف لأنني أعني ذلك.

وسأمثل بموقف علم من أعلام القطر العربي السوري الدكتور عبد الرحمن رأفت باشا(*) الذي عالج هذه القضية بوعي تام.

«جهود د. الباشا في تمكين اللغة العربية»

لم يفرق الدكتور الباشا بين ما هو عربي وما هو إسلامي إلى درجة أنه جعل العدوان على اللغة العربية عدواناً على الدين الإسلامي في كتاب وسمه بذلك، وأهداه: «إلى الذين قد عقدوا العزم على أن يعيدوا لأمتهم ثقافتها بنفسها، وبتراثها، وبدينها، وبلغتها بعد أن خامرها الشك في كل ذلك»^(١).

وعرض فيه ادعاءات المشككين بلغتنا التي حفظت علينا شخصيتنا عبر التاريخ، وبسط المزاغم والمآخذ التي ساقها أعداء العربية في قوله: «من أن لآخر تطلق حول العربية شبهات، وتتعالى دعوات، عدتها الافتراء وعتادها التشكك، تحت ستار الإصلاح والتجديد»^(٢).

ورآها حافظة كيان العرب، وجامعة شملهم، فهي: «الحصن الذي لا ذ به العرب طوال خمسة عشر قرناً؛ فصان كيانهم من أن يتفرق، وحفظ شملهم من أن يتفرق... ووحدة كلمتهم عن دفع العدوان.... وهي مستودع حضارتنا الزاهرة، وخزانة تراثنا الروحي والعقلي..... وهي كما

قرن: (قرأت في «رسائل سائر» للعالم المصري محمد سليمان رحمه الله، أنه ضلّ في شوارع أثينة، فكان يسأل من يعرف أنه يعلم العربية فيفهم عنه بها، ولكنه يردّ باليونانية، اعتزازاً بها وعصبيةً لها؟....

أو ليس من أعجب العجب، أن لغة العرب، وهي معجزة البشر، في سعة مفرداتها، وضبط قواعدها، وحسن اشتقاقها وغزارة أدبها، وأنها ولدت مع الدهر، فلم يدرك طفولتها التاريخ ولم يعرفها الناس إلا كاملة، قد هجرها أبنائها في بلادها، وصاروا جاهلين بها، وأن لغة الإنكليز، وهي لمامة من اللغات، ليس لها أصل العربية، ولا شرف نسبها، ولا طهارة دماها، وإنها لغة لا قواعد

لها ولا ضوابط، ففيها حروف تكتب ولا تقرأ، وحروف تقرأ ولا تكتب، والحرف يقرأ في الكلمة على غير ما يُقرؤه في الأخرى - صارت بفضل عناية أبنائها بها وخدمتهم لها، أشهر لغة في العالم؟.

ونستذكر بألم قول أحد الغربيين راغبين في ألا نصدّقه في استنتاجاته: (لا توجد على وجه الأرض لغة لها من الروعة والعظمة ما للغة العربية، ولكن لا توجد على الأرض أمة تسعى بوعي أو من دون وعي لتدمير لغتها كالأمة العربية).

ويؤكد هذه المقولة د. قسطنطين زريق في أن: (المشكلة ليست في تخلف اللغة، بل في أصحابها).

ما هو الحل للمشكلة اللغوية إذاً؟ هل يكمن في التخلي عن اللغة العربية أو إبدال العامية بها أو



الشيخ علي الحنطاوي



د. عبدالعزيز التويجري



١- إحياء العامية محل الفصحى:

دعا أولئك الغريبيون والمستغربون تحت ستار التجديد والإصلاح إلى نبذ الفصحى، وإحياء العامية ولهجاتها المحكية محلها. بحجج واهية تدور حول الأمور الآتية:

أولاً: ذلك التباين الكبير بين لغة الكتاب ولغة الخطاب، مما يجعل العلم وفقاً على طائفة محدودة من الناس.

ثانياً: قصور الفصحى عن الوفاء بحاجات الحضارة المتجددة النامية يوماً بعد يوم.

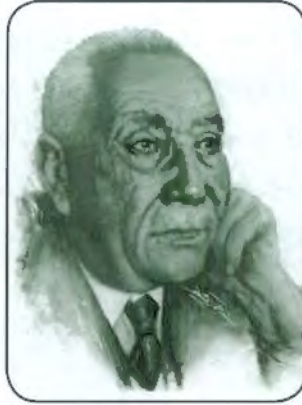
ثالثاً: صعوبة الفصحى، وتعذر إتقانها على الرغم من الجهود السخية التي تبذل في هذا السبيل.

رابعاً: جمود الفصحى، وعدم استعدادها للتطور.

فلتناقش هذه الحجج واحدة واحدة؛ للكشف عن زيفها، ودحض ما ادّعاء المدّعون من قدرة العامية على حل مشكلاتنا اللغوية.

ولنبداً بما ذهبوا إليه من أنّ جعل العامية لغةً للكتابة يصير العلم مشاعاً بين المواطنين العرب، ويقضي على طبقية المعرفة....

ولنسائلهم عن العامية التي يريدوننا أن نأخذ بها، أفنأخذ عامية (العراق) التي لا يفهمها إلا (العراقيون) وحدهم.... أم نستعمل عامية (الجزائر) التي تستغل على أبناء العروبة في كل مكان... أم نؤثر عامية (اليمن)، أم (مصر)، أم (الشام) أم (السودان)؟



سلامة موسى



عبد العزيز فهمي

تجمع الشعوب العربية حولها، تجمع حول الشعوب العربية قلوب المسلمين من غير العرب، وتجعل منهم سنداً قوياً لها في كل مكان، وظهيراً يدعم قضاياها في كل مجال...^(٢) والادعاء بأنها لغة عقيم لا تند، وعجوز لا تقوى، وبليدة لا تتطور، وصعبة لا ترقى إليها الأفهام؛ إدعاء باطل، وسعي إلى إضعافها ومحوها بكل سلاح.

ورأى د. الباشا أن الغرب قد جند طائفة كبيرة من دهاقينهم من أمثال: ويلمور^(٤) ووليم ولكوكس^(٥)، وأقرّ بأن نفعاً من أبناء أمتنا قد اندفع وراء هؤلاء الأعداء من أمثال:

سلامة موسى وعبد العزيز فهمي وسعيد عقل (عن علم أو عن غير علم؛ يؤيدونهم في دعوتهم، ويظاهرونهم في حربهم، ويدعون للأخذ بخططهم ومشروعاتهم).^(٦)

وشاهد ذلك سياسة الفرنسيّة في المغرب العربي التي اتّبعها الفرنسيون هناك، ولولا الثورات التي أقضت مضاجعهم في سورية لكان لهم مع اللغة العربية فيها موقف غير الذي كان.

ومثلهم فعل الإنكليز إذ فرضوا لغتهم لغةً للتعليم من الابتدائي إلى الجامعة في مصر والسودان. ولم يكتف الغريبيون بذلك، وإنما شجعوا

تعليم لغات الأقليات من مثل اللغة الكردية في العراق، كما أحيوا اللغة البربرية في الجزائر.

وكان ديدن الدكتور الباشا تمكين اللغة العربية والحفاظ عليها من مثل ما هو واضح في موقفه من القضايا اللغوية التالية:

وهب أننا أخذنا عامية (مصر) مثلاً، أفنختار عامية (القاهرة) أم (الصعيد)؟... وبينهما من الفرق ما هو أشد بعداً من الفرق بين الفصحى والعامية. وإذا كان الغرض من الأخذ بالعامية هو تنشيط العلم وتيسيره للناس.... فهل يتفق ذلك مع ما تؤدي إليه الدعوة من وأد آلاف آلاف الكتب التي دونت بالفصحى خلال تاريخنا الحضاري التليد، وقتلها من غير ذنب جنت.... وقطع صلة الأبناء بالأباء، وحرمان الأواخر من البناء على أساس الأوائل... وكيف تُكتب العامية، وما الحروف المناسبة لها.

إنها مؤامرة لاغتيال الفصحى والأمة العربية وقطعها عن تراثها وماضيها وتأكيد تقسيمها، بل وتقسيم المقسم منا إلى مناطق صغيرة ضعيفة تابعة لأعداء هذه الأمة.

والدنيا كلها تؤمن أن العلم تراث الإنسانية الخالد: يُتم فيه اللاحق ما بدأه السابق. ثم من أين لهؤلاء هذه الدعوة بقصور اللغة العربية عن الوفاء بمطالب الحياة، وعجزها عن

النهوض بأعباء الحضارة، وتفوق العامية عليها في ذلك؟ ويرى د. الباشا أن اللغة العربية استطاعت أن تشر ظلها الوارف على كثير من شعوب الأرض، وتمكنت من أن تفتنهم عن لغات آبائهم وأجدادهم..... فلم يمض قرن من الزمان؛ حتى أصبحت اللغة العربية لغة سكان الرقعة الفسيحة الممتدة بين المحيط والخليج؛ وذلك بالإضافة إلى بلاد (الأندلس)... حتى هبّ أبناء هذه الأقوام المسلمة من غير العرب؛ يؤلفون الكتب ويضعون القواعد لحماية اللغة العربية من

لغاتهم، ولصيانة فصاحتها من عجمة ألسنتهم. وما إن أطل العصر الذهبي لبني (العباس) على الكون، وعمد الخلفاء العظام من بني (العباس) إلى ترجمة العلوم الأجنبية إلى اللغة العربية؛ حتى استجابت لهم لغة القرآن أعظم الاستجابة.... فاستعت لفلسفة (اليونان) وحكمة (الهند)، وأدب (الفرس)... ووعت أعظم ما حفل به التراث الإنساني من طب، وكيمياء، وما إليهما من العلوم والفنون والمعارف. حتى أتى على أوروبا حين من الدهر، أصبحت فيه (طليطلة) العربية مهوى لأفئدة طلاب المعرفة من شباب أوروبا، ومنهلاً

يرتوون من كثره... كما هو الشأن اليوم بالنسبة لجامعات (باريس) و(لندن) و(موسكو). ولا تزال آلاف الكلمات الحضارية في اللغات الأوربية تشير إلى أصلها العربي^(٧).

٢- إحلال الحرف اللاتيني محل الحرف العربي؛

وحجة أولئك الغربيين وأتباعهم من المستغربين (أن رسم الكلمات بالحرف العربي لا تيسر معه قراءة النصوص قراءة مسترسلة مضبوطة، وأن الشكل التي استعاضت به العربية عن حروف الحركات، قد أثبت الاستعمال عدم غنائها؛ لأن الشكلة المنفصلة عن الحرف كثيراً ما تقع على حرف قبله أو حرف بعده؛ لعدم ضبط يد الكاتب، أو الناسخ، أو الطابع... وأن الكاتب العربي إذا استغنى عن الشكل؛ عرّض القارئ لقراءة الكلمة على جميع الحركات التي تحتلها الحروف.... ومن هنا وجب في نظرهم -على أهل العربية أن يأخذوا بطريقة تيسر لهم كتابة لغتهم على وجه لا تحتل فيه الكلمة؛ إلا صورة واحدة من صور الأداء..... ووجدوا أنه لا يتم





وصاغ أحكم قوافيه في أرض الكنانة (مصر)، وأعطى أصدق تأملاته في بلاد (فارس).. أهو عراقي، أم شامي، أم مصري، أم فارسي؟... وفي أدب أي إقليم يمكن أن يوضع أدبه؟..

وليس أبو الطيّب بدعاً في ذلك، وإنما يجاريه في ذلك عدد كبير من أدبائنا الأفاضل من أمثال: أبي تمام، والبحتري، وأبي العلاء، ومئات غيرهم من الكتاب والشعراء.^(١٠)

إلى غير ذلك من دعوات إلى العناية بالأدب الشعبي لإحياء العامية بطريقة غير مباشرة، وإلى اصطناع الشعر المنثور، وتيسير النحو العربي، والإبقاء على الفصحى مع إلغاء الإعراب من أواخر الكلم.

ويقرّر د.الباشا أن لغتنا العربية ليست ملكاً لشعب بعينه... (وإنما هي تراث العرب والمسلمين جميعاً على اختلاف ديارهم وأقطارهم... ينهلون من موارده، ويتزودون من معارفه، ويترنّمون بشعره ونثره، ويتمثلون بحكمه وأمثاله، ويهتدون بعبره وعظاته، ويفدّون عواطفهم بما وعاه من آيات الفن والجمال... وأنهم أسهموا جميعاً عبر تاريخهم الطويل في إقامة أركانه، وإحكام بنيانه... وإن تراثاً هذا شأنه: لا تستطيع أن تمتد إليه يد التحريف والتبديل. أي تغيير في أسسه هو من حقّ شعوب الأمة العربية والإسلامية كلها يوم يجتمعون.

وهم يوم يجتمعون ويتوحدون: سيكونون أشد حرصاً على لغتهم من أي يوم سلف... لأنهم سيعلمون أنذاك أن اللغة هي التي يسرت لهم نعمة الوحدة: فيغدون أشد استمساكاً بها، وأعظم حرصاً عليها. وأكثر براً بها).^(١١)

ويؤكد د.الباشا تفرّد اللغة العربية وتميزها في قوله: (إن اللغة العربية أعجوبة الأعاجيب في وضئها المحكم وبنائها الدقيق المنظم، وليس على من أراد الوقوف على غناها والاستيثاق من مبلغ قدرتها على

لهم ذلك؛ إلا إذا استبدلوا بحروفهم العربية حروفهم اللاتينية)^(٨).

وقد تبين د. الباشا فساد هذا في قوله: (ففي العربية تسعة أصوات ممثلة في تسعة حروف: لا نظير لها في الحروف اللاتينية وهي: الهاء، والحاء، والياء، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، والفيء... وقد وقف أصحاب هذه الدعوة حيارى أمام هذه الظاهرة، وافترقت كلمتهم في إيجاد الحلول لها. فرأى عبد العزيز فهمي أنه لا مفر له من أخذ هذه الحروف الزائدة بأشكالها العربية، وضمها إلى الأبجدية اللاتينية المقترحة: بحيث يجتمع فيها خليط عجيب من الحروف المتنافرة في الطبيعة والشكل. أمّا سعيد عقل، فركب لتحقيق دعوته مركباً أحسن: حيث كوّن الأبجدية التي استعملها في كتابه (يارا) من الأحرف اللاتينية الستة والعشرين، ثم أضاف إليها سبعة حروف جديدة اخترعها من عند نفسه، ثم ضمّ إليها أحد عشر حرفاً لاتينياً، بعد أن زاد عليها طائفة من الإشارات الخاصة لتؤدي بعض الأصوات.. وبذلك أصبح عدد حروف الأبجدية المخترعة أربعة وأربعين حرفاً، ومع هذا فأنا أشهد أنني عجزت عن قراءة سطر واحد من (يارا) بسبب استعمال العامية من جهة، وبسبب الحروف المبتدعة المخترعة من جهة أخرى)^(٩).

٣- الدعوة إلى دراسة الأدب العربي على أساس إقليمي؛

(حيث يصبح بين أيدينا أدب (شامي)، وآخر (عراقي)، وثالث (مصري)، ورابع (حجازي)، وخامس (نجدي)، وسادس (جزائري)، وهكذا....

وكم أحرّجنا هؤلاء الدعاة حين كنا نسألهم عن أبي الطيّب الذي ولد في (الكوفة) من أرض (العراق)، وغنى أعذب ألحانه في (حلب) من بلاد (الشام)،



التعبير عن شؤون الحياة المختلفة، إلا أن يقف على واحد من عشرات معجمات المعاني التي حفلت بها المكتبة العربية، وأن يتصفّح فهارس هذه المعجمات... فإنه سيجد فيها من غنى المفردات، ووفرة الدلالات، ودقة التعبير، وبراعة التصوير، ما يُذهب لبّه^(١٢).

أضف إلى ذلك تمتعها بخاصة الاشتقاق التي حرمت منها جلّ اللغات الحية....(وهي خاصة جعلت من لغة الضاد لغة منطقية، مما أدى إلى ضبط نظامها، وأطراد أحكامها، وإغناء مادتها، وجعلها لغة ولوداً على مر العصور.

فالاشتقاق هو الذي جعل ألفاظ اللغة العربية تتجمع في أسر... وجعل لكل أسرة حروفاً مشتركة تتوافر في جميع أفرادها.... ومعنى عاماً مشتركاً يشعّ من سائر مفرداتها.

ثم تنفرد كل كلمة من كلمات الأسرة بصيغة خاصة تميزها عما عداها، وبمعنى جزئي تختص به من دون أخواتها.... بينما غلبت الفردية على اللغات الأجنبية^(١٣).

فلقد أمضّ أعداء هذه اللغة أن تكون اللغة الوحيدة بين لغات الأرض: التي اتصل تلبد تراثها بطريقه خلال خمسة عشر قرناً؛ بسلسلة متماسكة الحلقات.

وأن ينتفع أبناء هذه الأمة مما في تراثهم من موعظة وحكمة، وأن يتذوقوا ما حفلت به من فن وجمال... وأن يعيشوا التجارب التي مرت بأسلافهم العظام، وأن يحيوا معهم بعواطفهم ومشاعرهم وعقولهم... وأن يجعلوا من ذلك كله مراكز التقاء يجتمعون عندها،

ويتعارفون على صعيدها... بينما لا يستطيع سواد الشبان المثقفين من (الإنكليز) مثلاً قراءة ما كتبه شكسبير منذ ثلاثة قرون، إلا بمشقة وعسر. أما ما كُتب قبل (شكسبير) فقد استحال عليهم فهمه، وحال دونهم ودونه ذلك التطور الذي يدعوننا إليه، ويحضوننا على الأخذ به^(١٤).

وقد أقر د.الباشا بحق أبنائنا علينا: (إن من حق أبنائنا علينا: أن نيسر لهم تعلم هذه اللغة لا أن نمليهم بتيسير اللغة نفسها، وأن نعنى بهذه اللغة عناية كافية في مدارسنا، وأن يتعاون معلمونا ومدرسوننا جميعاً على تعليمها مهما اختلفت موادهم، وألا يكلوها إلى درس اللغة العربية ومعلمها وحدهما....

فإنهم إن فعلوا ذلك؛ مضت قرون عدة قبل أن تصير الفصحى لغة الكتاب والخطاب... وأن يضعوا نصب أعينهم أن اللغة لا تعلم إلا بالممارسة والمحاكاة، وأن تلميذهم يأخذ لغتهم عنهم جميعاً، وأنه كائن يحس الجمال في التعبير كما يحسه في الأشياء الأخرى، وأن باستطاعة أيّ منهم أن يكون



أوفر نصيباً في تعليم اللغة لتلاميذه من معلم اللغة نفسها، إذا هو عزم العقد على ذلك، وسعى له سعيه.

إن من حق أبنائنا على رجال الدولة؛ أن يوقتوا أننا إذا عولنا على المدرسة وحدها في تعليم اللغة، فقد تمضي مئة عام قبل أن تضيق الشقة بين الفصحى والعامية... وأن يعلموا أن في وسائل الإعلام من القدرة على تعليم الفصحى ما لا تملكه المدارس....

ومن هنا وجب عليهم أن يحرموا عليها استعمال (اللهجات) العامية تحريماً قاطعاً، وأن يحملوها على استعمال الفصحى في جميع ما يذاع من تمثيلاتنا، وما يبث من برامجنا، وما تقدمه المسارح ودور (السينما) لروادها

من روايات ومسرحيات.... حتى لا يسمع الناشئة منها ما يفسد عليهم لغتهم، ويشوه لهم نطقهم، ويمكن للعامية من أسنتهم.

إن من حق أبنائنا على الحكومات العربية: أن تسن قوانين تلزم المؤلفين والمترجمين باستعمال الفصحى في كل ما يقدمونه للناس، وألا تسمح بنشر كتاب مهما كانت صيغته؛ إلا إذا خضع لقواعد اللغة، وجرى على أساليبها... وأن تحول دون صدور الكتب التي تدعو إلى التحلل من الفصحى، وتحض

على الترخص في أساليبها، وتروج للعامية وتعمل على نشرها، وأن تنظر إلى هذا الموضوع كما تنظر إلى أي عمل تخريبي؛ يمس كيان الدولة وسلامة الأمة.

وإن من حق أبنائنا علينا: أن يؤمن أديابنا وحملة الأقلام منا بأن لهم اليوم رسالة لغوية إلى جانب رسالتهم الفكرية، وأن هذه الرسالة تحتم عليهم أن يؤثروا الفصحى من القول ولو كان مجفواً على الفاسد ولو كان مأثوفاً حتى يألف الأبناء أساليب لغتهم (الصادفة).^(١٥)

الهوامش:

- | | | |
|--|--|-----------------------|
| (١) العدوان على العربية، ص ٧، الباشا د. عبد الرحمن، ط ٢، ٢٠٠٥ م. دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة. | العشرين، وصاحب كتاب (لغة القاهرة) أصدره سنة ١٩٠٢ م. | (٨) السابق، ص ٣٨-٣٩. |
| (٢) السابق، ص ٥. | (٥) وليم ولكوكس، مهندس ري إنكليزي، في مصر، ترجم نصوص من الإنجيل، وفصولاً من مسرحيات شكسبير إلى اللغة التي دعا إليها. | (٩) السابق، ص ٣٩-٤١. |
| (٣) السابق، ص ١٢ و ١٧. | (٦) العدوان على العربية، ص ١٩. | (١٠) السابق، ص ٤٣-٤٤. |
| (٤) ديلمور: قاض إنكليزي في المحاكم المختلطة في مصر في مطلع القرن | (٧) السابق، ص ٣٤-٣٥. | (١١) السابق، ص ٤٩-٥١. |
| | | (١٢) السابق، ص ٥٢-٥٤. |
| | | (١٣) السابق، ص ٦٠-٦١. |
| | | (١٤) السابق، ص ٦٢-٦٤. |
| | | (١٥) السابق، ص ٦٨-٧١. |